

## الفصل الرابع

### اليهود في عقل جمال حمدان

اليهود أنثروبولوجيا أى «اليهود من الناحية الأنثروبولوجيا» هو عنوان الكتيب الذى ألفه هذا العبقري الفلته ، جمال حمدان . ورغم صغر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيراً من أفكاره وآرائه ولا يمكن إلا فى إطار منظومته الفلسفية والسياسية ومنطقاته الفكرية. وقد نشر الكتاب فى طبعه ثانية فى كتاب الملل بعنوان «اليهود». وفيما يلى المقدمة التى كتبناها لهذا الكتاب (وأرقام الصفحات التى ترد فى هذه الدراسة هى أرقام صفحات هذه الطبعة).

هذا الكتيب ، مثل كل كتابات جمال حمدان ، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمة ، أى الدراسة التى يكتبها أحد المتخصصين الأكاديميين دوغماً سبب واضح ولا تتسم بأى شئ سوى أنها «صالحه للنشر» لأن صاحبها اتبع مجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومراجع وعنونات علمية موضوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة من المتخصصين والعلماء . والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التي يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تتبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثاً» عن أى شئ) هو زيادة عدد الدراسات التى تضمها السيرة

العلمية للأكادىمى صاحب الدراسة ، فتم ترقيته ، فالصالح للنشر هو عادة ما يوهل للترقية . قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام ، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنن وينشر ، ثم يكتب ويوثق ويعنن وينشر ، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب . ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التى تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شئ ليزداد لمعاناً وتالقاً ، إلى أن يُعين رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشئ الأكادىمى ، يتحرك فى عالم خال من أى هموم إنسانية حقيقية - عالم خال من نبض الحياة : رمادية كالحلحة هى هذه المعرفة الأكاديمية ، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة .

### النموذج المعلوماتى التراكمى :

كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى ، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف» لا يكتب إلا انطلاقاً من لحظة معاناة وكشف . وهو لا شك يتبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنونة ، ولكن الآليات ، والوسائل لا تتحول أبداً إلى غايات ، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل ، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن تحويل الحقيقة إلى عدل .

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هي دراسات إشكالية ، محاولة للإجابة عن سؤال ما ، وتصب كل الأسئلة في مشروع فكري واحد ، محوره مصر . فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً مثل عدد لا يُستهان به ممن يُسمون بالمفكرين في بلادنا ، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة ، عادةً من الغرب «أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب .. ولا شيء سواه ، وهي النظرة الاستعمارية التي سادت طويلاً ، والتي تركز على أن الدنيا هي أوروبا Euro Centric ولأن على أوروبا وأمريكا معاً Atlanto centric أو الغرب بعامة west centric (ثلاثية حمدان تأليف الدكتور عمر الفاروق، ص ٢٣) . صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم أجزاءها بقدر من المترابط والاتساق الداخلي (فهى تعبر عن قلقه وآماله) ، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار ، فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط ، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة . وما يحدث في كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها ، دون إدراك للنموذج المعرفي الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكتروا بتضميناته وتطبيقاته ، فمهمتهم هي النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) - نقل كل شيء بأمانة شديدة وحياد أشد ، وموضوعية متلقية هي في واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية ، والقدرة على الاجتهاد . في هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير ، بما تتضمنه من تفكيك وإعادة تركيب ، ويختفى المنظور

النقدى، فتعايش الأفكار المتناقضة جنباً إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهري منها والهامشي . ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيراً عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذى نبعت منه . لذا فمثل هذه الدراسات «قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسياً» (كما يقول جمال حمدان ص ٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء فى شركات نقل الأفكار التى لا تختلف كثيراً عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع .

جمال حمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التى استشرت تماماً فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمى من خلالها (استيانات - جداول - تحليل سطحى للمضمون - استطلاع رأى - أرقام) . ولا شك أن غياب المشروع الحضارى المستقبلى يزيد من انتشار هذا النموذج ، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل ، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلاً لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته . وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا ، ومن هنا التلقين ، والدروس الخصوصية التى لا تعلم الطالب شيئاً ، إذ إن المهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة اجتياز الامتحانات .

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع ، وتدور فى إطار الموضوعية التلقية ، السلبية ، العقل عندها آلة ترصد وتحلل ،

وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم ، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماماً فى الحقائق والرقائع والأفكار المتناثرة ، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوفة ، كم لا هوية له ، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص . وكما يقول جمال حمدان: «نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين الثورة .. إلخ . وفى هذا الإطار التحريدى الضيق [أى الاختزال] أو المتعجل غير المتأن .. تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، وتبدوا أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطاردهم شبحاً» (ص ٦) .

### ثنائية تكاملية :

وبدلاً من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية ، يقترح جمال حمدان «دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلاً وتاريخاً ، جنساً وتركيباً ، تطوراً وتوزيعاً» (ص ٦) ، بدلاً من الاختزال التركيب ، وبدلاً من التلقى الإبداع ؛ وبدلاً من التفاصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية . تبدأ هذه الرؤية بتعريف

(أو إعادة تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين) ، إن البحث المبدع الأصيل في مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها) . فالجغرافيا «هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)» . هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام . يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة ، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هى التعرف على «شخصية الأقاليم» . يقول ذلك وهو يعرف تماماً أنه قد ولج عالماً مختلفاً ، «فالشخصية الإقليمية» شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم ، إنما تتساءل أساساً عما يعطى منطقة تفرداً وتميزاً بين سائر المناطق ، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف «عبقرية الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة» . عالم الكم هو عالم الأشباح التى لا بدن لها ولا قوام ولا روح . ولأنها لا بدن لها نجد ما تقيم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها . وهى أيضاً لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان. هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه ، فشكل الجسد وبنيتيه يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى . ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح ، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادي يتنمى لعالم المادة ، وقوانين الحركة . بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح فيه ، التى يصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملبس ومأكل وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن

مكان لآخر ، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم الحضارة الإنسانية بسرائها وخصوصيتها .

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سحينة الكم ، فهى لا تقبع قط فى الآن وهنا وحسب ، وإنما تتجاوزها ، «فهى تترامى بعيدا عبر الماضى وخلال التاريخ . لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية » (شخصية مصر ، ص ٣) .

ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان : فهو يرفض أحادية البعد ويتبنى ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته . وكما يقول : «حق لنا أن نقضى تفاصيل التفاصيل .. ولكن أحق علينا كذلك ألا نفرق فيها أو نتوه ، وإنما علينا أن نتجاوزها ، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات وإلى جانب النظرة التحليلية التليسكريبية والجغرافية والماكروسكوبية واسعة الأفق» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٩) . ولكن الثنائية التى يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية : كم يتكامل مع كيف كيف تتكامل مع التاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام . والتكامل هنا لا يعنى ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يودى إلى الواحدية) وإنما يعنى تقاطع وتفاعل يودى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى . وإذا أخذنا العنصر الثانى فى الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمى لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمى إلى عالم الإنسان (كيف تاريخ زمان

روح) . وكما يقول جمال حمدان : «البيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء ، ولكنها تنطق من خلال الإنسان . وربما تكون الجغرافيا صماء ، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض ، يمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان» (شخصية مصر ، ص ٤) .

بيئة خرساء وجغرافيا صماء . هذا هو عالم الواحدية المادية (الدراسات الموضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) في مقابل إنسان ينطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان) ، والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقي بظله عليها على الأرض . ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان أن يتلعهما ، ولذا فالأرض تلقى هي الأخرى بظلالها على الزمان الإنساني .

### المحصلات الرياضية :

هذه الثنائية الأساسية هي التي جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفي الذي يشكل الأساس الفلسفي للنموذج المعلوماتي التراكمي والذي قوض دعائم الإبداع الإنساني وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكرا ماديا حتميا مملا يقضى على الإنسان يلقي بظلاله الكثيفة الكمية عليه حتى يخفيه تماما ، أعنى فكرة وحدة العلوم التي أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمي في مصر والعالم . وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ،

فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافاً في الجوهر والنوع والكيف ، وإنما هو اختلاف في التفاصيل والدرجة والكم ، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء ( والظواهر الطبيعية ) يسرى في أساسياته على الإنسان ، ولذا فلا بد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسوك الإنسان والنمل . وقد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحةً (فمن منّا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن في منطلقا تم المعرفة . يرفض جمال حمدان هذا المنطلق المادى المصمت المعادى للإنسان : «فالجغرافيا الكاملة الكامنة لا تحقق في شيء كما تحقق في دراسة الشخصية الإقليمية .. والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماماً للقياس الرياضى والإحصاء ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساساً .. على مادة علمية موضوعية بحتة . إنها عمل فنى بقدر ما هي عمل علمى» . وهو لا يجد في هذه الثنائية أى تعارض ، فالجغرافيا «فلسفة المكان .. فلسفة عملية واقعية .. ترتفع برأسها فوق التاريخ .. وتظل أقدامها راسخة في الأرض» . وفي عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدراً من التكاملية - وهو سيد مثل هذه العبارات - يقول حمدان : «فلسفة تخلق بقدر ما تحدد» . الجغرافيا في نهاية الأمر «علم ... وفن وفلسفة في ذات الوقت : علم بمادتها ، فن بمعالجتها ، فلسفة بنظراتها» . كل هذا يعنى رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى) ، «فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا

بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير ، من جغرافيا الحقائق المرصودة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة» (شخصية مصر ص ٦) وما بين الرص التراكمي والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقي لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ في التصاعد (حتى وصل مؤخرا إلى أبعاد لا يمكن تحليلها) . لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيؤ المطبق ، وبأن عالم الكم والأشباح يزداد اقترابا واتساعا فقرر أن يحمي علمه وإبداعه ، لأنه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا إبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهي أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعي الختصى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادي واحد . فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التي تشبه الهامبورجر أو النظام العالمي الجديد بنزوعه نحو العولة والكوكبة والكوكلة «نسبة إلى الكوكا كولا» وتحزيب العالم إلى سوبر ماركت ضخم ، كل الناس فيه سواسية كأسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محليا . جمال حمدان لا يطبق هذا ، فعائلة عالم إنسان ثرى جميل مورق ينبض بالحياة ويتمم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا في مفهومه للوحدة ، فهو يرفض الوحدة العضوية المصمتة التي تدور في إطار الرؤى المادية وتشويؤ الظواهر ، وتجعلها كلا متجانسا أملس . بل إنه يؤكد البعد الإنساني في مبدأ الوحدة ذاته: «إن الوحدة السياسية لا تأتي بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتي . فالعبرة في قيام دولة موحدة دستوريا هي وحدة الناس ، أي وحدة القومية .معنى تجانسهم في المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصالحة مترابطة وعقيدة سائدة .. ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية ، والوحدة في أي مجال لا تأتي من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبي ، فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة في إنتاجها ومواردها وإمكاناتها إلا أن يكون مجرد تمدد أمبي عقيم ؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ «التنوع في الوحدة» أو «الوحدة في التنوع» (شخصية مصر ، ص ١٣) .

### سيدة الحلول الوسطى

هذا المنهج يتبدى تماما في رؤيته لمصر ، فهي نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (اتلافا واختلافا) : الموضع والموقع ، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية ، هي فلتة ولكنها ليست وثنا، ولم يكن هو عاشقا وثنا لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد في محراب مصر ، ولذا فهو يرفض السقوط في ميثافيزيقا المكان المصري (أو أي مكان آخر) فيقول: «كثير من هذه السمات تشترك

فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة» (شخصية مصر ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محبا لمصر ، والحب «أسرار» كما يعرف كل من عرف الحب الحق ، وأن تبوح به هو في حكم المحال ، إن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه في ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية . ولكن العالم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماما ، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقا أنه لن يكشفه ، ولن يسويه ، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والإفصاح لن يجفقا ببحر الحب وعميون المحبة ! ولذا فالعلم الذى مؤسسه ليس علما رصديا ترشيحيا برانيا نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها . أو كما يقول «إن الدراسة الإقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات ، غير أنها قل أن تتقبض على روح المكان أو تجسد العبقريّة بإحكام ، إنها تشرح الإقليم .. إلا أنها في غمار ذلك تضحى بروح الإقليم» (ثلاثية حمدان ص ٢٩) تزهقه تماما . وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علم مبنى على الحب ، علم يخلق ويصدق « يتحرك من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل» (ثلاثية حمدان ، ص ٢٩) ؛ يدرك السطح البراني بتفاصيله والعمق الجواني بأبعاده ؛ يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس . «لذا لا ينبغي لنا أن نبالغ فدعوى تجانسا مطلقا ، يكفي أن نقول تجانسا نسبيا» . «وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية» (التي يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم) ، فمن

الواضح «أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت في شرايينها وليس من الدقة العلمية في شيء أن تصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله ، فليس هناك أطر ثابتة إلى الحد كأنها أقباص حديدية» (شخصية مصر ، ص ٣٢) .

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق ، عالم الأشباح إياه . ومصر التي يجبها ليست شيئا ماديا ، جغرافيا محضا ، وإنما هي رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان . هي مجموعة من الثنائيات التي لا تذوب ولا تختزل في كل واحدى مصمت - «هي بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماما ، فهي بالجغرافيا تقع في أفريقيا ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم .. وإذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس لأنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات ، وإنما لأنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية ، بين أبعاد وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى» تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمة نصفاً» ! (شخصية مصر ، ص ٨ - ٩) .

### الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه «فرعونية بالجد .. عربية بالأب» (شخصية مصر ، ص ٨) . ولكنها ثنائية تكاملية ، وليست ازدواجية «فالأب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك» . غير أن العرب هنا

وقد غيروا ثقافة مصر ، هم «الأب الاجتماعي» في الدرجة الأولى ،  
وليسوا «الأب البيولوجي» إلا في الدرجة الثانية» (شخصية مصر ،  
ص ٢١٣) . فالتعريب الإسلام .. «هما أعظم حقيقة في تاريخ مصر  
الثقافي والروحي ويمثلان انقطاعا حضاريا ، ونقطة تحول حاسمة وخط  
تقسيم في وجودنا اللامادي» (شخصية مصر ، ص ٢٠٨) . وبالنسبة  
لجمال حمدان يعد هذا الوجود اللامادي هو العنصر الأهم في ثنائته  
التكاملية . «فبعد التعريب أصبحت [مصر] جزءا لا يتجزأ من العالم  
العربي وعاشت غالبا إقليميا أو رأسا في رؤيته السيامية وفي ظل وحدته  
القومية» (شخصية مصر ، ص ٢٠٨) .

والاستعارات أو الصور المجازية التي سيستخدمها جمال حمدان تسمى  
بولائه العربي على حساب جذوره «المصرية» . فنحن نحب الجدل  
ونتذكره ، أما الأب فنحن ننتمي إليه ، ونسير معه خاصة وإذا كان  
الأب العربي هو «آخر انقطاع في الاستمرارية المصرية» ، خاصة إن  
الجد قد ابتعد كثيرا ، فمصر الفرعونية (كما يبين جمال حمدان) «لم تعد  
إلا مكدسة في المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ،  
أما في الوادي فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من  
النهر . ولهذا فنحن ننتهي إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت في  
مجموعها ، دون أن يتبقى ذلك الاستمرارية المحورية في حضارتنا  
المادية» (شخصية مصر ، ص ٢٠٧) . ولذا يحذر جمال حمدان  
دعاة «الفرعونية» (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات  
الضيقة كالفينيقية والآشورية) فالمقصود من هذه الدعوات نفى القومية

العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة» (شخصية مصر ، ٢١٤) . كما يحذر من دعاة الاستمرارية في الكيان المصرى « لا ليرز أصالة ما ، ولكن ليقبل من جانب الانقطاع ، وبالتالي ليضخم في البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها » ( شخصية مصر ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ) .

ومصر التى فى خاطره وفى فمه ، وسيدة الحلول الوسطى ، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة « بحيث صارت مجعاً لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى » ( شخصية مصر ، ص ٩ ) . وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة . ثم هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر : بقية العالم .

ولنبداً بالدائرة الأولى أى الدائرة العربية . « الإطار العربى ] حسب تصور حمدان [ ليس مجرد بعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه نخامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته » (شخصية مصر ، ص ١٧٨) . ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية ووحدة عضوية مصمتة : « فليس مما يضر قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد » . « وهو لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية

الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية في وجه الولاء القومي العربي الكبير أو على حسابها» ( شخصية مصر ، ١٣ ، ١٤ ) .

ولنتوقف هنا قليلا لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين ؛ جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يوليو فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر ، ووضع الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى ، ونظرا للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعا سياسيا مصريا حضاريا له أبعاد دينية ، فابتعد عن العنصرية . ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يولييه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانيات ، لأنها كانت ثورة برجماية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة ، فضاغ ما ضاع ، وجلس فيلسوفنا الحزين ينظر لها ، بينما كانت أمانة الدعوة والفكر « الاشتراكى » تمتلى بموظفين قادرين على إصدار أى بيان يطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام ( أى نظام كما بينت الأيام ) وبذلك وضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيرا عن الوحدة العربية ، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التى يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية « بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية » بدلا من هذا يطرح مفهوما صحيا وصحيحا « للوحدة الإسلامية . » توحيد الدين ، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين لتذويب الفروق والفرق الحفرية

التي ورثها عن ماضٍ فقد الآن سياقُه الزمني ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافي والفكري العام والمزيد من التنسيق الاقتصادي والترابط والتبادل التجاري ؛ التضامن السياسي الوثيق في المجتمع الدولي لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة .. تلك جميعاً هي المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامي سياسياً .. إنها في كلمة « وحدة عمل » لا « وحدة كيان » . بل يمكن أن نضيف : وحدة مصر ، إلا أنها ليست دستورية ، في كلمة أخرى : وحدة فكرية لا دستورية . أو هي كما قال عبد الناصر في دوائره الثلاث « دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكافئهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة .. » فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصر ، والأفريقية وحدة جوار ، فالإسلامية وحدة عقيدة ( العالم الإسلامي المعاصر ، ص ٢٠٦ ) .

### فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية / الجغرافية ، الزمانية / المكانية ، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نتقرب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا ؟ وأين يقع اليهود ؟ . يعبر جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجي المصري كله في إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالي

- من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .

- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم في سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم في خط دفاع مصر الأخير
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى .

وهذه بالضبط « نواة نظرية الأمن المصرى » ( ثلاثية حمدان ص ٢٢٨ ) ، إن موقع مصر مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل « خاصة وأنها » تريد أن تترث دور القناة نهائياً ، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى « ، ومن ثم يصبح المبدأ الإستراتيجى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء - تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعاً ، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو » ( ثلاثية حمدان ، ٢٢٨ ) .

ثم تنتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر « محكوماً عليها بالعروبة » ( بعد أن دخل الجدد الفرعونى المتحرف ) ، فهى « لا تستطيع أن تسحب من عروبتهها ، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت » ( ثلاثية حمدان ، ص ٢٤ ) . بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين فى منتصفه ، لكن بدلاً من فلسطين السبى توحيد شطريه [والتي تمثل ] نقطة عبور بينهما ، تظهر إسرائيل التى تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها « فهى « إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفاً مزمناً فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير » ( إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ١٧٥ ) .

ثم تنتقل إلى الدائرة الثانية ، أى الدائرة الإسلامية . سنكتشف «إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى ، لا جغرافيا فحسب ، بل ودينيا أولا وقبل كل شيء . أن يكون العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحيا وموقعا ، فإن فلسطين - كمصر فى هذا الصدد - هى أرض الزاوية فى العالم الإسلامى طبيعيا . وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه - ما بين الصين شرقا والأطلسى غربا وما بين وسط آسيا شمالا وجنوب أفريقيا جنوبا . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقلنس الأقداس فيه أرضا ودينا» (العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢٠٨) .

ثم تلتحم الدائرتان العريضة والإسلامية « فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب » ، وإنما يمتد من النيل إلى الفرات شرقا بغرب ، ومن الإسكندرية حتى المدينة شمالا بجنوب . وهذا وذلك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب ، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات ، ويرادف قلب العالم العربى ، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى ( العالم الإسلامى المعاصر ، ص ٢١٥ ) . ولذا إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية ، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنفاد فلسطين للعروبة والإسلام ، وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعوا إلى « قومية المعركة » ، فإن من واجب العالم الإسلامى

كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى « إسلامية المعركة » ( العالم الإسلامي المعاصر ، ص ٢١٦ - ٢١٧ ) .

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الآسيوية وهنا أيضاً سنجد إسرائيل « أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية في العالم الثالث .. أخطر مناطق التسليح الغربي .. ترسانة أمريكية مسلحة حتى الأسنان » . ويضع جمال حمدان ما يسميه « معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصر الإمبريالية العالمية يتوقف على مصر العالم الثالث .
- مصر العالم الثالث يتوقف على مصر العالم العربي .
- مصر العالم العربي يتوقف على مصر فلسطين / إسرائيل « .

### رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهي ليست مهمة في ذاتها ، إذ تتبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والعالم الآسيوي / الأفريقي والتشكيل الاستعماري الغربي . وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى ، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة الثانية . يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة «استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١١٩» أما الصهيونية فهي بكل بساطة السرقة ( إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ٢٠٩ ) هي قطعة من الاستعمار الغربي ( إستراتيجية الاستعمار والتحرير ،

ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة « فهي بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً ، ورأس جسر ثابت استراتيجياً ، ووكيل عام اقتصادياً وعميل خاص احتكارياً (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٥) . ولذا فإن الصهيونية « اليوم هي بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحذير يواجهه العالم الإسلامي المعاصر ، تماماً كما يواجهه العالم العربي : أكبر من صليبيات العصور الوسطى ، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوروبي الحديث التي غطته في القرن التاسع عشر والذي لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الاستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعي والأخطبوط الصهيوني إن يكن سرطان العالم العربي ، فهو جذام العالم الإسلامي في الوقت نفسه» ( العالم الإسلامي المعاصر ، ص ٢١٥ ) .

هذه هي بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقاً بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ - الاستعمار الصهيوني « استعمار عميل » ، فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، فالاستعمار هو الذي خلقها بالسياسة والحرب ، وهو الذي بمدنها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، وهو الذي يضمن بقاءها ويحميها علناً ( إستراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٦ ) . « من هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخياً على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن

اليهودى قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار ،  
وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمناً لبقائه » . ( استراتيجية الاستعمار  
والتحجير ، ص ١٦٨ ) .

٢ - إسرائيل استعمار سكنى فى الدرجة الأولى ، فلن كانت بداياتها  
قد واكبت موجة الاستعمار المدارى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها  
استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد فى  
القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم فى بيئات  
معتدلة شبه أوروبية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة له  
تاريخياً ، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى  
فى العالم كله ( إستراتيجية الاستعمار والتحجير ، ص ١٧٢ ) .

هذه هى الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أن ثمة خصوصية  
لهذا الاستعمار السكنى :

( أ ) إذا صح أن نميز فى الاستعمار السكنى للمعتدلات بين النمط  
اللاتينى الذى يضيف المستعمرين إلى الأهالى الأصليين بلا إبادة عامة  
كما فى أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم  
على إحلال المستعمرين محل الأهالى الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما فى  
أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فإن إسرائيل تقع  
بالتأكيد فى النمط السكسونى « ( استراتيجية الاستعمار والتحجير ،  
ص ١٧٢ ) .

( ب ) تتميز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى ، فهي تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج ، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هى كاستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً محققاً من إبادة الجنس ، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل الجنسى ، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث إنها طردت السكان الأصليين خارجها تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها» (استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

(ج) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية «فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الاستيطاني (الإسرائيلي) عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره» ( إستراتيجية الاستعمار والتحرير ص ١٧٤ ) . وإسرائيل بهذا كله أعلى أم نقول أدنى ؟ مراحل الاستعمار السكنى ، وهى الاستيطان بالاستتصال والإحلال . والاجتثاث والإبادة ( استراتيجية الاستعمار والتحرير ، ص ١٧٣ ) .

٤ - إسرائيل استعمار توسعى أساساً ، « وأطماعها الإقليمية معلنة بلا موارد ، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Eretz-Israel » هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتسم إلا بتفريغ

المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة. وبطبيعة الحال، فلا ميبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة. ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني في آن واحد، إزاء عدوان آت واقع وعدوان سيقع في أي آن (استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٧٤).

٥ - أدى كل هذا إلى عسكرة المجتمع الإسرائيلي تمامًا، فقد تعيّن في حالة إسرائيل، أن تصبح حدودها هي جيوشها، وجيوشها هي حدودها (استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٧٤). «كما أن وجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكوتها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيدا - إلا بالدم والحديد والنار. ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها، و «أمن إسرائيل» هو مشكلتها المحورية، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادي، فهذا أساسي في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات (استراتيجية الاستعمار والتحرير، ص ١٧٣).

متحف الأجناس :

إسرائيل كما أسلفنا استعمار سكانى مبنى على نقل السكان (اليهود) من الخارج إلى فلسطين، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية، ومن هنا اليهود أنثروبولوجيا. وجمال حمدان كما أسلفنا - يرفض وحدة العلوم، لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان

والحشرات والأحياء ، ولذا فهو لا يشيئ ما هو إنساني ، أى لا يراه باعتباره شيئاً ، أى لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها . كما أنه لم يشيئ مصر أو العالم العربى والإسلامى ، ولم يشيئ الجغرافيا فى علم طبيعى ، ولم يشيئ إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار العربى ، أو تعبير فريد عن موامرة يهودية شيطانية أزلية) ، فهو أيضاً لا يشيئ اليهود .

لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود) . فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم ، مقصور عليهم سُمى «الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد ، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود ، كما يضع أى ظاهرة أخرى ، فى النقطة التى يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء . فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية العامة ، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم : العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى عودة .. إلى فلسطين بالاغتصاب ، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . تمثل جسمًا غريبًا دخيلاً مفروضًا على الوجود العربى ، أبداً غير قابل للامتصاص .. فهم ليسوا عنصراً جنسياً فى أى معنى بل جماع ومتحف حتى لكل أخلاط الأجناس

في العالم كما يدرك أي أنثروبولوجي «(ص ١٧)». إن يهود العالم اليوم محتلطون في جملتهم اختلاطا بعيدا عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة «(ص ١٨١)» .

هذه هي الصورة العامة ، ولكن هناك دائما الخاص ، «وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط» (ص ١٨١) . وبعد أن يبين هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص إلى « أن اليهود إنما هم أقارب الأنجليز والأمريكيين ، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما وإن اختلف الدين . ومن هنا فإن اليهود في أوروبا ، أمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجناب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نبلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (ص ١٨٢) .

هذه هي النتيجة النهائية ، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التي يسمونها «الأكاذيب الحقيقية») ، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة . أنظر - على سبيل المثال - دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء ، أو الخلط (ص ٤٢ - ١٤٦) . يعرض حمدان للقضية من خلال بناء منطقي واضح يختبره دائما من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة . وهو في دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها . ففي أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصراع بين

الدولتين العبريتين (٥٨-٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتلوهم في عدة صفحات أخرى في درس تاريخهم [ص ٦٣] وتوزيعهم [ص ١٠٤] وأعدادهم [ص ١٠٥] وخروجهم من العالم العربي) .

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها في سياق العلم العام . فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التي يوجدون فيها ولا يوجد أي داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر . فكما أن إسرائيل استعمار استيطاني إحلالي شأنه شأن أي استعمار استيطاني إحلالي يمكن دراسته داخل إطار حركات تاريخ الاستعمار الغربي . فاليهود هم أيضا بشر ، يمكن دراستهم داخل إطار حركات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر . وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التي استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود ، على سبيل المثال ، على أنهم في حالة شتات دائمة ، يهيمنون على وجههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج في مجتمعاتهم . لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة ، ويبين أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهليلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية . لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدول المكابية للتصدي للنزعة الهليلينية ، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهليلينية «وانتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى في كل العالم الهليليني البيزنطي» . هذا الانتشار لم يكن تعبيرا عن شتات أبدى وتحوال لا نهاية له ، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية .

ولذا نجد أن «في مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود» (ص ٦٦) ، هذا قبل سقوط الهيكل ، أى أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت / انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود في الحضارة الإغريقية ، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

### من المعلومات المتناثرة إلى الأنماط المتكررة !

لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصا ، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء ، فهو دائم البحث عن أنماط ، ذات معنى ومغزى ، كامنة في التفاصيل . وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكان عقله صفحة بيضاء ملساء ، ٣١ وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة ، فبعد أن يأتي بمحمد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود في العالم وتوزيعهم ، يطرح السؤال التالي : «ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات ؟» . وما هي «ملامح الصورة العامة» . الإجابة هي أن «أوروبا عمليا هي الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هي أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضي ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق إلى الغرب : دائرة شرق أوروبا ومركزها بولندا الروسية ، ودائرة غرب أوروبا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك» (ص ٩٤) .

هذا هو الإطار العام ، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية «فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها ، اليهود في الإطار الكوكبي هم ظاهرة قرمية» (ص ٩٦) . وانتشار اليهود في أنحاء العالم ليس انتشارا كيميا أو تمددا أفقيا وإنما يتبع هو الآخر نمطا محددا ، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يلاحظ اتجاههم «نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركيز يهود شمال أفريقيا تقليديا في المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساسا في القلب القارى للعالم القديم» (ص ١٠٩) .

وينتقل حمدان من أنماط التوزيع في العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر ، فيبين أن «اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة ، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها . وهذا حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولا تتبلور في وقتنا هذا . والأمثلة تغني عن الحصر ، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكى» (ص ١٠٩) . وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن» . نعم ولكنه ليست أى مدن وإنما «مدن كبرى» وهى ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم» . ثم يضع

يدنا على النمط الذى يربط التعميم الجرد بالتفاصيل المتعينة «ويهود دولة ما» هم عادةً «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها» . وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفصيله ، ثم تنتهى المقطوعة بالإشارة إلى تلريخ اليهود قديماً وحديثاً وأخيراً إلى المثال الأمريكى المتعین . يبيّن حمدان أن اليهود يقيمون أساساً في نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى . ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التى يسميها (بروح الدعابة التى لا تفارقه) ، رغم نبرته الجادة ) «تل أبيب الكبرى ، بل إنها إسرائيل الكبرى» . ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول : «إن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسباً طردياً مع أحجامها ، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو ، فيما لا وزن لهم مثلاً في بوسطن (ص ١١٢) . ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل «هل تريد مزيداً من الأمثلة؟» وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطى قارئه عشرات الأمثلة : تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدنى ، أى إنه يختبر بنفسه النمط العام الذى طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفاصيل ليبيّن مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التى يستحقها .

ثم يصل حمدان إلى فلسطين ، دائماً فلسطين ، مركز اهتمامه وسر انشغاله باليهود : «حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥.٩% من سكان إسرائيل يتكدسون في المدن . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية .

بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية urbanism لكنها بيسلطة «حثة مدن» العالم انصبت واستقطبت في دولة» (ص ١١٣) . قد تنفق معه وقد تختلف ، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه . قد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأشياء متعمفة قليلاً أو كثيراً ، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم ، قد تقول إن استخدام عبارة «حثة مدن» انحراف عن المنهج العلمي المحايد أو البارد ، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عينك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول ، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض ، عن نفسك غبار التلقى ، وها أنت ذا تجرد نفسك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التي تبدو وكأن لا معنى لها ولا دلالة ، أي إنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع ، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد في الحقائق وإنما الأنماط التي يستخلصها عقل الباحث ، وأن عليه (إن كان حقاً محباً للحقيقة وليس عبداً للحقائق) أن يكذب ويتعب ليصل إلى من يجب .

اليهودى كتاجر :

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود في المكان ، ولكن تظل الصورة في حاجة إلى مزيد من الظلال ، حتى لا تقع في عالم الأشباح العامة ، حتى تنتقل من مجرد النجائيف أو أشعة إكس التي لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التي رسمتها يد إنسان ولذا فهي قادرة أن تنطق بالعام والخاص ، وأن تحيط

بالكم والكيف والزمان والمكان ، وبما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال إستراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبته، لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهني والوظيفي ويلاحظ ابتعادهم عن «الزراعة أولاً وعن الصناعة إلى حد بعيد» (ص ١٠٣) ، كما يُلاحظ أنهم يتركزون في الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية الخ «(ص ١٠٤)» ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق في الزمان والمكان يبين أنه «ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر» . وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقدت كما كانت كلمة اليهودي مرادفة لكلمة «التاجر» وحديثاً يحتشد اليهود في الوظيفة الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك من «اليهود» (ص ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح غمطاً عالمياً ، «واليهودي» بهذا كله قد أصبح مركباً اقتصادياً - اجتماعياً شديد الوضوح حتى يُضرب به المثل وحتى اتخذ علماً ونموذجاً على حالات مشابهة : كذلك مثلاً يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين «يهود جنوب شرق آسيا» وكذلك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا» ! (ص ١١٦) ، أى أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل ، وتصبح الظاهرة اليهودية جزءاً من العلم العام ، علم اجتماع الأقليات التجارية الهاشمية .

ولا ينسى جمال حمدان البُعد الديني . فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعاً دينياً (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني ، فكما أن الدائرة الإسلامية هي إحدى الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدى الدوائر الأساسية للصهيونية وإسرائيل . ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها بأنها وحدها من بين الأديان السماوية ، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبداً . واليهودية قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل، وبحكم أن اليهودية ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه) (ص ٩٧) . وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضاً من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبيّن مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسيري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للاندماج ، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبيّن أن «اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية» (ص ١٧٠) . ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار لا بد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا ، . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي «لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر» (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية ومن هنا «الدولة الجيتو» (ص ١٧٢) . وهذا التحليل يبيّن التزام جمال حمدان

بالتعددية السببية ورفضه أن يعطى أولوية سببية لعنصر واحد . فظهور الدولة الصهيونية هو ولا شك جزء من المحجمة الاستعمارية ضد المنطقة ، ولكن هناك أيضاً عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة . ولذا لا بد وأن تُرصد هذه الدولة لا في إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب ، وإنما من خلال كل العناصر .

### حجر أم رشاش متطاير ؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام ، ولذا فهو حريص على أن يتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليعتد عن كلمات وعبارات محددة تعبر عن المنحى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكدر ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة («جغرافيا صماء») ويتلاعب بما لإبراز المعنى المطلوب («الرص والرصانة») أو الجمل المتناقضة (عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن) . وهناك النبرة الخاصة في خطابه ، فهو قادر على أن يتوقف عن المرد ليتوجه للقارئ مباشرة . ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة في ذاتها، كما أنه مصرى صميم في ولائه شبه الكامل للنكته ، ولكنها نكته تُوظف دائماً في خدمة الرؤية ا

انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من شخصية مصر «أما الانفتاح الذى يرادف الانتفاخ ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعى» (ثلاثية

حمدان ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ ، الذى هو فى جوهره شكل من أشكال الدعاية ، يعبر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصرى . فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبه .

وهناك أخيراً استخدامه للمجاز . واللغة المجازية ليست زخرفاً كما يتصور البعض ، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه . ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد فإنه كثيراً ما يلجأ للمجاز . وهذا فى حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التى تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية . ففى وصفه لتوزيع اليهود فى العالم يبين أنه ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر فى العالم يهودياً» ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : «الأصح أن نقول: إن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحياناً إلى تراب رمزى بحت» . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب» (ص ١٠٥) . وفى مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول «الصورة المجازية ليست نهر مجرى مرصعه عالمياً بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منشوراً ، من النوى والنويات السليمية هنا وهناك» لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريباً ، فقد أخذ صورة «نهر الجمره» ليحوّله إلى «منشور من النوى والنويات السليمية» (ص ١٠٥) ، بدلاً من النور الذى له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

أثر جمال حمدان :

هناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماماً وغير موضوعية تماماً) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية) وهي علاقتي ومدى تأثري به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية والتي صدرت عام ١٩٧٥ م . كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته أم أسلوب حياته : هذا الزهد العلمي الشديد ، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنته من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعى المعرفي) . ومن الفارقات التي تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة ، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية .

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأن في هذا شأن أى باحث ، ولكن يبدو أيضاً أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطلتها تماماً دون أن أدري . غير أني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري وتصنيفي جديد (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي) وجلست لأتأمل في مصادر فكرى . وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة ، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره . لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت ،

واستبعدت ما استبعدت ، ثم تبدلت المعلومات وتحورت ، كما تبدل المعلومات وتحور ، ولكن بقي ما هو أهم : بقى فكره ورؤيته منهجه . فمن الواضح أننى تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية ، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والخدس فى عملية التفكير العلمى . ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها فى نطاق العلم الإنسانى العام ووضعها فى عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تسم بالوحدة . ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتى (مثل د . إميل جورج - د . نور شريف - د . ديفيد وإمر) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل فى المعلومات وتفسيـرها . لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف نجرد الحقيقة من الحقائق . ولا أدرى هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة على المقاومة ؟

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده فى سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحاتين من كتاباته ، وإنما هو هناك بين السطور ، وهذا هو أعمق الأثر . ولكن مع سيطرة النموذج التراكمى للمعلوماتى ، أهملت أهمية هذا النوع من التأثير فمجال البحث العلمى بالنسبة للكثيبين هو الحقائق وليس الحقيقة ، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها ، ولذا فحينما يدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادة ما يبحثون دائما عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثر (وهكذا عُدنا مرة أخرى لشركات النقل ا ) . وقائمة

المراجع فيما يُكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الإسهام لا يوجد في سطر بعينه أو في صفحة محددة ، وما يوجد بين السطور لا يُقاس ولا يُمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي .

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِمَ لم يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري؟ يمكنني القول أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماماً وحوّل كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية ، يتناولها بنهم الكتّاب المعلوماتيون . وأعتقد أن معظم ما يُكتب هذه الأيام يُكتب صيدوراً عن هذا النموذج ، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة ، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لا بد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره ، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) في توصيله . ولا بد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثي ونبيّن ما أنجزه منه وما لم ينجزه فهناك أجنده بحثية بين السطور علينا أن نصل إليها ونبيّتها للأجيال . إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد ، لم يلتزم به هو نفسه أحياناً ، وهذا هو شأن الرواد دائماً . علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي

يحوى الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان ، ثم تكمل المسيرة  
وبذا لا تضيع حياته هدراً وتكتسب عزاته معنى ، ويتحول إنجازه  
الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوفة وكتابات مصفوفة  
تُسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليُكرّم اسم صاحبها ثم تُعاد مرة  
أخرى ، لتستمر في الرقاد ! يتحول هذا الإنجاز الشامخ إلى رصيد حتى  
يُضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكرى فيزيدها علماً وحياة .